كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٦ —

نقد الأصـــول

تعيين شخصية المؤلف وتحرير زمانه ومكانه التدوين (*)

إذا ما ثبت الباحث أن الأصل أو المصدر التاريخي صحيح وغير مزيف فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة . ولا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى . وبعض الأصول تحمل اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها، والبعض الآخر الذي يكون عليه طابع الصحة وعدم التزييف ينقل بعض أو كل هذه النواحي ، فينقص ذلك من قيمتها التاريخية . فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي وهو يجهل اسم المؤلف وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها ؟ هل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ؟ ومتى دونها ؟ هل دونها أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن طويل ؟ وفي أي مكان تم ذلك التدوين ؟ هل كان في مكان وقوع الحوادث أم في جهة بعيدة عنها ؟ من الضروري جداً معرفة كل هذه النواحي بقدر المستطاع . فكيف السبيل إلى تحقيق كل ذلك ؟

إن معرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي مسألة هامة لأن قيمة المعلومات التاريخية التي يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ومدى فهمه للحوادث وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم . فالمعلومات التي يدونها الأمير أو الحاكم تختلف عن المعلومات التي يسطرها السياسي أو صاحب المهنة أو الجندي أو رجل الشعب . وكاتب الأصل التاريخي ، سواء كان شاهد عيان أو اعتمد على غيره من شهود العيان ، يعتبر الواسطة التي يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية . فإذا كان الكاتب شخصاً صادقاً عدلاً بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع كانت معلوماته صحيحة بصفة عامة ، والعكس صحيح أيضاً . وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية . وفي هذه الناحية كغيرها من نواحي نقد الأصول التاريخية الأخرى ، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضي ، والقاضي يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه بالحق أو بالكذب ينطقون ، ولكن المؤرخ عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضي بالعقل والنقد والخيال ، وأحياناً تضيع هباءً جهود المؤرخ لمعرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخي فيظل مجهولاً ، وأحياناً أخرى لا يمكن للمؤرخ إلا أن يجمع بعض المعلومات القليلة عنه . ونلاحظ أن وضع اسم شخص على أصل أو مصدر تاريخي لا يفيد دائماً أنه كاتبه كما فهمنا ذلك من عوامل الدس والانتحال . وإذا عثر الباحث على الأصل التاريخي المخطوط أمكن في أحوال كثيرة التعرف على شخص الكاتب أو الاقتراب منه على الأقل ، بدراسة الخط ونوع الورق والحبر واللغة والأسلوب والمصطلحات الخاصة بعهد تاريخي معين وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث في التاريخ فيخطئ في نسبة الأصل التاريخي إلى كاتبه الحقيقي . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الأب بواس قرالي أنه عند حضور علي باشا أمير البحر التركي إلى المياه السورية لفض النزاع القائم بين فخر الدين أمير لبنان ويوسف سيفا صاحب طرابلس في يوليو سنة ١٦١٩ ، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركي يعتذر فيها عن الحضور إليه بنفسه[١] . ويقول الأب قرالي أن الأستاذ اسكندر المعلوف قد أورد ترجمة هذه الرسالة باللغة العربية في كتابه عن الأمير فخر الدين . والأستاذ المعلوف يعتبر أن هذه الرسالة قد صدرت عن فخر الدين ولكنه يتشكك في تاريخ إصدارها ولا يمكنه أن يحدد ذلك[٢] ويذكر الأستاذ المعلوف أنه قد نقلها عن ريكو[٣] .

(*) يعبر الأستاذ فلنج عن هذه الرحلة من النقد بكلمة Localization ص ٦١ ، ولم أجد كلمة عربية واحدة تفيد هذا المعنى . فلعل بعض القارئين يعدنا بما هنده .

(١) Carali, P. : Fakhr ad Din II Principe del Libano e la Corte di Toscana (1605—1635). Roma, Roma, 1936. p. 99.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني . جونية ، لبنان ، ١٩٣٤ . ص ٣٨٥ .

(٣) Knolles & Rycaut : The Turkish History from the Original of that Nation to the GroWth of the Otfoman Empire. 3 vols. London, 1687. v. I. p. 693.

والواقع أن هذه الرسالة ليست لفخر الدين . والمؤلفان كنوللس وريكو قد أخذا معلوماتهما عن هذه الفترة عن كتاب مينادوى الرحالة الإيطالى المعاصر الذى زار سوريا ولبنان أثناء حملة إبرهيم باشا لإخضاع الدروز فى ١٥٨٥ . ومينادوى يورد نص هذه الرسالة باللغة الإيطالية ، ويقول إن ابن معن قد أرسلها إلى إبرهيم باشا فى يوليو ١٥٨٥ . ولقد نقل كنوللس هذه الرسالة عن مينادوى إلى اللغة الإنجليزية . ولا يحدد مينادوى ولا كنوللس (وريكو) من هو المقصود بابن معن . على أنه لا يمكن أن يقصد بابن معن فى ذلك المقام الأمير فخر الدين ، لأنه كان إذ ذاك غلاماً صغيراً ؛ والمقصود بابن معن ، هو قرقماز بن معن والد فخر الدين ، وليس فخر الدين نفسه . والذى حاول إبرهيم باشا أن يحمله للقدوم عليه للغدر به . وبالبديهة لا يمكن أن تكون هذه الرسالة قد صدرت عن الأمير فخر الدين إلى الباشا التركى فى ١٦١٩ ، لأن كتاب مينادوى الذى يتضمن أقدم نص معروف عن هذه الرسالة قد طبع فى البندقية فى ١٥٩٤[١]

ومن الأمثلة التى توضح طريقة إثبات شخصية كاتب الأصل التاريخى أن الباحث فى التاريخ قد يجد خطاباً باللغة الإيطالية مدوناً فى باريس بتاريخ ٢٩ يونيو ١٧٨٩ وموجهاً إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ ، ولكن بدون تحديد تلك الحكومة وبدون تعيين الكاتب . وفحص هذا الكتاب يدل على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين فى فرنسا . فمن هو ذلك السفير ؟ وإلى أية حكومة أرسل خطابه ؟ الحكومة الإيطالية الوحيدة التى كان على رأسها مجلس شيوخ فى ١٧٨٩ هى جمورية البندقية . فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية فى فرنسا إلى حكومته . فمن هو ؟ البحث فى سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية فى باريس فى ذلك العهد كان أنتونيو كابللو[٢]

وقد يحتوى الأصل التاريخى على معلومات عن حوادث رآها شاهد العيان بنفسه أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير . فينبغى أن يحدد الباحث على وجه الدقة أجزاء الأصل التى دونها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه ، وتعتبر إذاً أصلاً من الطبقة الأولى ، وكذلك يحدد أجزاء الأصل التى اعتمد الكاتب فى تسجيلها على الغير ، وتعتبر أصلاً من الطبقة الثانية ، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات إذا أمكن ذلك . ومن الأمثلة التى توضح ذلك ما ذكره (كاميل ديمولان) فى بعض ما كتبه عن المشادة التى حدثت بين مندوب الملك لويس السادس عشر وبين ميرابو أثناء اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ . والباحث يعرف من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور ، وكاميل ديمولان لم يكن عضواً فى مجلس طبقات الأمة ؛ وعلى ذلك فإن ديمولان لم يسمع بنفسه ما قاله ميرابو لمندوب الملك . فكلامه عن هذه المشادة أخذه عن طريق السماع ، فيعتبر أصلاً من الطبقة الثانية . إنما وصف ديمولان لما شهده خارج مكان الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير يعتبر أصلاً من الطبقة الأولى[١]

وفى بعض الأحوال يجد الباحث كتاباً طبع فى باريس فى ١٨٩٠ مثلاً . ومن المحتمل أن يكون مؤلفه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه فى ١٨٥٠ بدون أن يشير إلى ذلك . فالمسؤول عن المعلومات الواردة هو الكاتب الأول السابق . وصحيح أن السطو على كتابة الغير والنقل منها بغير حساب قد نقص الآن ، وعنه القانون أحياناً ؛ ولكن كثيراً ما يجد الباحث أن من الأصول والوثائق ما هى إلا عبارة عن نقل حرفى لأصول ووثائق سابقة ، سواء قصد الناقل السرقة وانتحال المعلومات لنفسه أو جهلها لأنها تهمه وتفيده[٢] . فعلى الباحث فى التاريخ أن يتعقب الكاتب الأصل ؛ وإنه لمن أهم المسائل فى هذه الناحية من النقد معرفة المصادر أو الوثائق التى أخذ عنها ذلك الأصل التاريخى . ومن الأمثلة على ذلك أن الباحث قد يعثر على مجموعة من الكتابات عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والنمسان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة النمسان وهو بستيانو بالبيانى ، ولكن بدون تحديد للمصادر التى أخذ عنها[٣] . والبحث فى سجلات

(١) Minadoi, G. : Historia della Guerra fra Turchi e Persiani. Venetia, 1594. pp. 279—281

(٢) Fling : op. cit. pp. 65—66

(١) Fling : op. cit. p. 79

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 94

(٣) Archivio di Stato di Firenze : Strozzani I. 145. Imprese delle Galer (1558-1610). Bastiano Balbiani. pp. 1-45 b.

أرشيف فلورنسا التاريخي يوضح أن بالبياني قد اقتبس مثلاً من أقوال بعض رجال الحملات البحرية الفرنسكانية بقيادة الفارس فرنسسكو دل مونتي والأميرال أنجراي في الشرق الأدنى وفي شمال أفريقيا في ١٦٠٧[١]

وقد يجد الباحث أحياناً مجموعات من الأصول والوثائق تتناول بحث نقطة معينة، فينبغي إذاً جمعها وترتيبها وتقسيمها إلى مجموعات على حسب التقارب والاختلاف في المعلومات التي تردها، وقد يكون التقارب شديداً أو قد يوجد اختلاف بين هذه الأصول والوثائق، مثل الاقتصار والاجتزاء في مواضع، والإطالة وإعطاء تفصيلات ومسائل جديدة في مواضع أخرى. وقد توجد علاقة بين هذه الأصول التاريخية في ناحية النقل أو الاقتباس عن مصدر أساسي واحد. فعلى الباحث دراسة هذه الأوجه كلها لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين كتبوا في هذه النواحي المتشابهة والمختلفة لتقدير ووزن أقوال كل منهم، وسنعود إلى ذلك عند بحث ناحية أخرى من نواحي نقد الأصول التاريخية

وقد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من مؤلف واحد. فالكثير من الأصول تدخل عليها إضافات وزيادات وتعليقات في مواضع مختلفة، ثم تطبع ويعتبر الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع كاتب واحد. إلا أنه من الممكن بدراسة هذا الأصل كشف الحقيقة؛ وإذا وجد الأصل المخطوط أصبح من السهل تمييز الأصل من الإضافات والزيادات. أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبق أمام الباحث إلا المطبوع أصبحت المسألة أكثر صعوبة. إلا أنه يمكن بالدراسة الوصول إلى نتائج معقولة. فيدرس الباحث اللغة: هل هي واحدة أم متغيرة، والأسلوب هل هو واحد أم متغير، وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة، وألا توجد خلافات ومتناقضات وفجوات في تسلسل الأفكار؟ وإذا كان الكاتب الذي أضاف في موضع أو أكثر من النص الأصلي واضح الشخصية أمكن تمييزه، وإلا بقي مجهولاً لدى الباحث في التاريخ[٢]

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم؛ فإنه قد عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية في سورية في زمن ابراهيم باشا، وكانت مُغفلاً من اسم المؤلف. ووجد الدكتور رستم أنها ليست تاريخاً واحداً، وإنما هي ثلاثة تواريخ فقسمها إلى (ا. ب. ج)؛ ولاحظ أن هذه الأقسام لا تتعلق حوادث متسلسلة، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهي سابقه، وأن الحوادث تتكرر في أقسامها الثلاثة، ولاحظ أيضاً أن (ا، ج) يستعملان التاريخ الهجري، بينما (ب) يتخذ التاريخ المسيحي، ووجد أن (ج) أكبر الأقسام، وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان مع إعطاء تفصيلات شخصية درزية محلية عن دير القمر وبيت الدين. فرجح الدكتور رستم أن كاتب (ج) شخص لبناني درزي، أو أقام بدير القمر على الأقل. فقصد الدكتور رستم إلى المكتبة البطريركية في بكركي، وفحص أوراق ١٨٣١ — ١٨٤١، وبعد الدراسة الطويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود في (ج)، وبنفس اللغة واللهجة، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبي. فاتجه الدكتور رستم إلى بطريرك الموارنة مارى الياس حويك، وعرف منه أن القس أنطون كان من المقربين للأمير بشير الشهابي، وأنه سكن بيت الدين، وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير، وعن حروب ابراهيم باشا في سورية، وأن أغلب ما كتبه قد أحرق أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز في ١٨٤٥. وإذاً، فالقس أنطون الحلبي هو مؤلف المخطوطة (ج)[٣]

وليس يكفي أن نعرف اسم المؤلف فقط إذا كان مجهولاً؛ والغرض من معرفة الاسم هو معرفة شخصية وصفات الكاتب — لأن ذلك سيكون له قسط كبير في تقدير قيمة المعلومات التي ترد في الأصل أو المصدر التاريخي. فلا بد من أن يجمع الباحث كل المعلومات الممكنة عن شخصية كاتب الأصل التاريخي. وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع معلومات عن شخصية المؤلف من بعض كتب التراجم؛ أو يجمع معلوماته عن الكاتب من الأصل التاريخي الذي دوّنه. فمثلاً الكتابة المؤرخة في ٢٤ يونيو

(١) Archivio di Stato di Firenze : Mediceo. 2077. pp. 747—749 b. & 751—758 b.

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 93

(٣) أسد رستم : مصطلح التاريخ. ص ٣٤ — ٤٢

١٧٨٩ عن بعض حوادث الثورة الفرنسية فى باريس وفرساى يفهم الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف ، وأنه شاب قوى الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساى أثناء المطر المنهمر ؛ ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جرىء ثورى ، يتكلم بصراحة ويقرر أن ممثلى الشعب لا يخافون الموت ، ويعلم الباحث أيضاً أن الكاتب كان مهتماً بالحوادث التى شهدها لدقة وصفها وحسن التعبير عنها . ولا ريب فإن هذه الأوصاف تنطبق على « كاميل ديمولان » الذى كتب عن تلك الحوادث[1]

والمسألة التالية فى هذه الناحية من النقد هى معرفة زمن تدوين ذلك الأصل التاريخى . فالأصل أو الوثيقة قد تكون صحيحة ، وكاتبها قد يكون من الأشخاص الذين يتحرون الصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد ينقص من قيمتها بُعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره . فالذاكرة تخون الإنسان ، ويفوت الكاتب حوادث وتفاصيل خاصة كلما بعد به العهد عن زمن وقوع الحادث مهما كانت رغبته فى قول الصدق ومهما حاول استرجاع وقائع الزمن الماضى . فإذا كان الكاتب لم يحدد تاريخ تدوين الأصل التاريخى ، فكيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ولو بالتقريب ؟ فى بعض الأحيان يمكن بدراسة المحتويات وضع حدين لمبدأ ونهاية الأصل ؛ أى إنه يعين التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ، والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون هذه الحوادث قد وقعت بعده . ولتحديد ذلك ينبغى أن يكون الباحث صاحب ثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذى يدرسه . ولا بد أن تكون الوثيقة أو الأصل قد دون بعد آخر حادث ورد به ؛ ولكن من الجائز أن يكون التدوين قد حدث بعد ذلك بزمن قصير أو طويل . وإذا فرضنا أن كتاب سفير الهندقية فى باريس لم يكن مؤرخاً ، فإنه يمكن معرفة تاريخ كتابته بدراسة محتوياته . فالحوادث التى ذكرها السفير هى حوادث يونيو ١٧٨٩ ؛ وآخر حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٧ يونيو ١٧٨٩ ؛ وعلى ذلك فلا بد أن السفير قد دوّن كتابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم . والمجلس اجتمع بعد ذلك فى ٣٠ يونيو ؛ فيكون السفير إذاً قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ الهندقية فى ٢٨ أو ٢٩ يونيو ١٧٨٩[1]

ثم يواجه الباحث فى التاريخ مسألة أخرى هى مسألة تعيين مكان تدوين الأصل التاريخى ؛ وهى مرتبطة كل الارتباط بما سبق . وسواء كان النص الموجود أمام الباحث أصلاً تاريخياً من الطبقة الأولى أو أصلاً تاريخياً من الطبقة الثانية فلا بد من معرفة مكان تدوينه . فهل دون شاهد العيان الحوادث فى مكان وقوعها أو فى مكان بعيد عنه ؟ أو هل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم ، وأين كان ذلك ؟ وهل كان التدوين فى مكان وظروف تجعل كاتب الأصل التاريخى قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً ، أم أن التدوين قد حدث فى مكان بعيد واعتمد الكاتب على الذاكرة والخيال فى سرد الوقائع ؟ المعلومات التاريخية التى ترد فى الأصل قد تحدد مكان التدوين فى بعض الأحيان . أو قد يمكن معرفة ذلك فى المعلومات العامة عن الكاتب . فمثلاً بابى كتب مذكراته فى ربيع ١٧٩٢ . ونعرف من التاريخ أن بابى كان فى ذلك الوقت مقيماً فى نانت . وإذاً فهو قد كتب مذكراته فى نانت وليس فى باريس مسرح الحوادث التى كتب عنها[2]

(يتلى)

عيسى عثمان

(١) Fling : op. cit. pp. 67—69.

(١) Fling : op. cit. pp. 72—73

(٢) « « p. 76

إعلان فقد ختم

حامد جادو من كفر دميرة القديم بمركز طلخا غربية يبان أن ختمه فقد منه وجدد بدله ، وهو خالى الديون ، وكل معاملة تظهر به تكون لاغية ويعاقب حاملها